هكذا كان غسان كنفاني يغتصب كتابته الفنية من الساعات المخصصة لنومه . ولم تكن تلك الكتابة الا نتاج علاقته بفلسطين — الوطن والحلم والصراع والجماهير والمنفى . كان اكثر من كاتب . ولكن ما افدح الخطأ الذي يرتكبه صغار النقاد والصحفيين ويخدعون به الناس حين يضعون واو العطف [للتمييز] بين الكاتب والمناضل . كأن يقولوا : كان كاتبا ومناضلا . ليس الامر في مثل هذا التفصيل ، فقد كان غسان كنفاني كاتبا مناضلا .

كثيرا ما يجابه الكاتب الفلسطيني باسئلة تأتيه من البراءة او الاتهام : هل انت كاتب ام مناضل ؟. في مرحلة تاريخية معينة يحدد انكاتب المناضل بأنه الكاتب الذي يعبر عن حركة القوى الثورية .. عن حركة الجديد . وغالبا ما تكون اداة تعبير الكاتب عن اندماجه بقوى الثورة هي الكتابة . وقد بقي غسان كنفاني مطاردا بهذا السؤال الى ان بلغ الشهادة ، فهزم السؤال وانتصرت كتابة غسان .

كان نشاطه الكتابي متعددا . والطريقة التي سفك فيها دمه محرومة من الوصف . لقد رسم جسده المزق حالات القضية الفلسطينية .. لقد حقق الاسطورة .

كم من صديق رثيت . ولكن لم احس بانني ارثي نفسي ، فاعيد صياغة حياتي ، الا عندما حاولت الامساك بطرف هذا البركان : غسان كنفاني . ماذا بوسعك ان تفعل ؟ حقا ، ماذا بوسعك ان تفعل ؟ هكذا ينقض الكاتب على نفسه في حضرة الكارثة التي لا يردها قلم . ولعل مثل هذه الحالات التي تنتقص من جدوى الكلمة وقوتها في سياق المقارنة مع عناصر الطبيعة او الفعل الهائل هو الذي خلق ، منذ القدم ، تقليد عقد المقارنة الظالمة بين الكلمة والفعل . ليس الخطأ ، دائما ، ان نقدم اجابة مخطئة . احيانا وفي مثل هذه الحالة بالذات يأتي الخطأ من مجرد طرح هذا السؤال .

وان الموت حادث . ولكن هنالك نوعا من الموت يأخذ شكل الاجابة على معضلة او مقارنة . وهكذا يتحول مصرع الكتاب المناضلين الى دلالات ورموز . وهكذا كان مصرع غسان كنفاني شهادة على فاعلية الكتابة لا نفيا لها كما يتصور الميكانيكيون والعاجزون امام حركة العلاقات ، كهؤلاء الصبية القادمين الى اسم الثورة من اقاليم العجز والاحباط والقبح ، ليعمموا عاهاتهم على الورق وعلى نفسية البشر ، فيتهمون الفن بالردة ، ويتهمون الحياة بالخيانة .

صديقي غسان ! كم من صديق ودعت ، ولكن لم اودع مرحلة من حياتي الا في وداعك الاخير . كان آخر ما انتظر من كوابيس هو ان اقدم لاعلانك السابق عن وجودي منذ عشر سنين . لقد ولدت قبل ذلك ، ولكنك انت الذي اعلن ميلادي . لم اقل لك : شكرا ، فقد كنت احسب العمر اطول .

الآن نقول: ادب الارض المحتلة .. ها ..ها ! ولكن الحالة كانت تختلف عامئذ.فقد كنا مجموعة من شباب دون الثلاثين نفتقر الى ادنى مقدمات الرد العملي على الهزائم التي يعاصرها وعينا وعارنا . وكنا نحاول كتابة الشعر دون ان نعي انه شعر . كنا نصرخ ، نتوجع ، نحتج ، فلم نملك اداة تعبير اخرى . وكانت اغلبية مواطنينا تسخر منا ، لانها تعرف طفولتنا ومراهقتنا وصبانا معرفة لا يليق بها الاعجاب . صبيان